المحاضرة الخامسة

المطلب الحادي عشر : في شوائب الأولاد وطريقة عقابهم عليها

إن شوائب البشر وعيوبهم كلها ترجع إلى أصلين كبيرين أحدهما حسي يضاف إلى البدن وهو الميل البهيمي، والآخر معنوي يضاف إلى الذهن وهو الأثرة فإذا غلب الأول في طبيعة الولد مال إلى الكسل والنهم والملاهي والتبذير وإذا غلب الثاني ظهر فيه الحسد والحقد والفظاظة والكذب والبخل، ولكن ما من خلة من هذه الخلال الذميمة إلا وبإزائها خصلة حميدة إذا اعتني بإنهائها وتربيتها في الصغر لاشت تلك أو عدلتها حتى تجعلها من المناقب الممدوحة، مثلا إذا كان من طبع المرء الإسراف فإن التربية القوية وما تنطوي عليه من علم الاقتصاد والتدبير قد تلاشي منه تلك الخلة أو تحولها إلى بسط اليد لتعضيد المشروعات العلمية والأدبية والأعمال الخيرية، وذلك بما تبثه فيه من الآداب الراقية وما تحببه إليه من الفضائل والصلاح وكذلك الحسد فإنه إذا لم يتلاش بفعل التربية فإنه يتحول بصاحبه إلى مباراة غيره في طلب المعالي ومسابقتهم إلى المراتب فيستفيد بذلك نجاحا وتقدما ويكون مثالا لغيره في بعد الهمة وخطارة النفس؛ فالأم الحكيمة هي أقدر الناس على تربية جراثيم السلاح في الولد، وذلك أنها كلما اطلعت على نقيصة فيه تبين له ضررها وتحمله بالرفق والملاطفة على الإقلاع عنها وملازمة الخصلة التي تضادها بقدر الاستطاعة.

أما وقد اتضحت أسباب الشوائب وطريقة إصلاحها فأقول أن أنجع طرق العقاب وأعدلها ما ينشأ طبعا عن الخطأ الذي ارتكب لأن الطبيعة نفسها هي التي تعين جنسه ومقداره وهي التي تفرضه على المخطئ لتعلمه بالخبرة أنه ما تعدى أحد نواميسها إلا عوقب؛ فالطفل الذي يكسر داحته (لعبته) يعاقب من طبعه بحرمانه منها، فإذا تجاوز ذلك إلى كسر لعبة أخته عمدا ليؤذيها أو لمحض التلهي؛ فعلى الأم أن تقتدي بالطبيعة في عقابه فتأخذ منه بعض أدوات لعبه أو شيئا آخر ذا قيمة عنده فتعطيه لأخته، وبذلك تعوض عليها ما أتلفه لها وتذيقه أيضا مرارة فقدان ما يعزه فيذكر أن عقوبته مسببة عن ذنبه وناشئة عنه لأنها مجانية له وهذا النوع من العقاب يدعى عقاباً طبيعياً وهو أفضل من الضرب وخلافه الذي لا يشبه جنس الجرم ولا يكون في الغالب مناسبا له بل يحمل الولد على التظلم لعدم إدراكه في أكثر الأحوال نسبة العقوبة إلى خطئه، أما لو اقتدت الأم بفعل الطبيعة في معاقبته فإنه يدرك تلك النسبة ويقر لنفسه بعدل العقوبة محاذرة من حاولها به ثانية، ولزيادة الإيضاح نقول للأم أنها إذا خلطت لابنتها ثوبا جديدا فدفعها الطيش إلى تمزيقه سريعا أو تلطيخه بالأقذار غير محترسة عليه فتوبخها على ذلك وتكلفها أن تنظفه أو ترفأه بنفسها إن كان ذلك ممكنا وإلا فتدعها تلبسه متسخة وممزقة ليهز بها أترابها وتعير هي نفسها منه فتعلم بعدئذ أن تحرص على ثيابها خوفاً من أن تتعرض لمثل تلك الإهانة ثانية، وذلك أفضل من أن تضر بها فتوجعها ثم أسرع لخياطة ثوب آخر لها. فإن مثل هذا القصاص ليس من جنس الخطيئة ولا هو ناشي بالطبع عنها؛ فهي قلما تدرك ما

بينه وبينها من العلاقة وإذا أدركت شيئا من ذلك فإنها تنساه سريعا ثم تعاود الذنب بخلاف ما لو كان القصاص طبيعية ناشئا عن الذنب فإنه يذكرها كلما همت بإعادة الخطأ فترتدع عنه حتى إذا خاطت لها ثوبا جديدا بعد ذلك وجدتها أكثر احتراساً عليه.

وكذلك لو أهدى الأب ساعة لولده أو سكينا لبري القلم أو دواة نبيلة فلم يحتفظ بها بل أضاعها أو كسرها فلا يسرع بأن يعوض غيرها بل بدأ يذوق مرارة فقدها مدة ليشعر بأن ذلك قصاص على قلة اعتنائه حتى إذا أعطاه غيرها بعد ذلك كان أكثر احتفاظ بها وإذا أضاعها أو كسرها ثانية فيجدد القصاص عينه من الطبيعة أيضا، وبذلك يبقى الوالدون بمعزل عن أن ينسبهم الأولاد إلى القسوة أو يضمرون لهم الحقد والحنق بل يلبثوا عندهم أصدقاء نصيحين يحذرونهم سوء العواقب لا أعداء بغيضين متحكمين يريدون لهم الأذى.

هذا فيما يصدر عن الولد من الهفوات الصغيرة والخطايا السيرة فإن تجاوز ذلك إلى حد الغلظة أو ارتكب ذنبا لا يمكن أن يفرض له عقاب طبيعي من جنسه فعلى الأم أن تغلظ له العقاب بحيث يعلم أن غلظته هي التي أوجبت له غلظة القصاص كما لو أخذ شيئا من أحد ولم يشكره عليه كما هو الواجب؛ فعلى الأم أن تنبهه إلى ذلك فإن أبى طاعتها فينبغي أن تلجئه ولو بالقهر إلى أن يقوم بواجب الشكر، وكذلك إذا أغلظ بالكلام لأحد أو رفع يده عليه فتضطره إلى الاستغفار ممن أساء إليه ثم تباعده مدة ليعلم أن فعلته هي التي أوجبت سخط أمه

وامتعاضها فإن ارتكب ذنبا أعظم من هذه الكذب مثلا فعلى الأم أن تعزره وتؤنبه وتحبسه في حجرته مدة ما. وإن ارتكب خطايا يخشى أن تفضي عواقبها إلى هلكته أو الإضرار به كما لو حاول القفز من شاهق أو لعب بجارحة أو تصدى لغير ذلك من الأفعال التي عقوبة الطبيعة عليها ذات خطر على حياته فتأمره بالكف عنها مظهرة له سوء العاقبة فان لم يرعو تعين عليها أن تكفه عنها بالقوة المجبرة.

ويحسن بالأم أن تشدد العقوبة على الكذب لأن الكذب شر العيوب وأصل المعاصي ومتى هان على الإنسان ارتكاب جريمة الكذب هان عليه ارتكاب جميع الموبقات لاعتقاده أن الكذب ينجيه منها، والكذب ليس من طبيعة الطفل ولا موجب له لديه بل هو عارض عليه من تأثير التربية فمتى أتى الولد ذنبا وأقر عنه أولا لدى السؤال فعاقبته أمه أو ضربته من أجل ذلك الذنب فلا ريب أنه يميل بعد ذلك إلى إنكار ما يجنيه من الذنوب هربا من العقاب، وهكذا يتعود الكذب لأنه يرى فيه منجاة له على حد قول الشاعر:

والصدق أن ألقاك تحت العطب لا خير فيه فاعتصم بالكذب

والأفضل أن تمتنع الأم عن قصاص الولد لدى اعترافه لها بخطيئته وتكتفي بتحذيره من إتيان ذلك الخطأ ثانية مبينة له سوء العاقبة، وبذلك تشجعه على الإقرار بالحقيقة دائما فيشب على الصدق والأمانة ويكون طيب القلب مستقيم السير في مستقبله فتسمو منزلته بين الناس وتعظم ثقتهم به فضلا عما يشعر هو به من راحة الفكر والضمير وما يتمكن بينه

وبينهم من روابط الاستقامة والود بحيث تعتبر الهيئة الجامعة بذلك أسرة واحدة متصلا بعضها ببعض بروابط المحبة والإخاء والفضية والشرف.

المطلب الثاني عشر: في إرهاف الذهن

إذا نظرنا إلى الطفل وهو بعد في مهده نجده يحدق النظر في كل غريب يدنو منه ويتناول كل ما تقع عليه يده فيحمله إلى فمه ويعض عليه، وما ذلك إلا رغبة منه في الاستطلاع والاستفهام وهكذا يشرع في إدراك المدركات وتفهمها بالاختبار والامتحان من تلقاء نفسه وعلى قدر استطاعته ثم متى ترعرع إلى أن يتدرج إلى السؤال والاستخبار عن كل ما تقع عليه عيناه فإذا قطف زهرة أو التقط حصاة أو رأى ساعة أسرع إلى والدته أو حاضنته راغبا في معرفة شيء من أمرها تارة بالتلميح وتارة بالتصريح بقوله ماذا ولماذا وكيف هذا إلى غير ذلك من الأسئلة التي لا يكاد يفتر عن طرحها علينا ولا نكاد نحن نفتر عن زجره عنها اعتقاداً بصعوبة تفهيمه إياها وإذا جاوبناه عليها فكثيراً ما نجعل جوابنا قليل الفائدة أو من باب المزاح مع الطفل فالأجدر بالأم أن تهتم بإعانة الطبيعة على إنهاء ذهن الولد وتقوية اهتمام الزارع بالزرع فكما أن الزارع يتعهد زرعه ويقتلع ما ينبت في خلاله من شوك يخنقه وزوان يفسده، فكذلك يجب على الأم أن تحرص على تقوية ذهن الولد وإرهافه ليتهيأ شيئا فشيئا لما سيلقى إليه من المعارف والعلوم إلا أن ذلك يجب أن يكون رويداً رويداً بحسب ترتيب الطبيعة وتبعا لمجراها لا ابتسارا ولا قسرا لأن كل ما نبتسره أو ننميه قسراً نعرضه لفقدان كثير من مزاياه

الحسنة الطبيعية، ونكون فيه من يستنبت شجرة في أرض حارة الإقليم فإن شدة الحرارة قد تجعلها تمر سريعا ولكن ثمرها يكون في الغالب تفهاً لا يستلذ طعمه لأنه ينضج في وقت قصير لا يتمكن به من امتصاص الغذاء الكافي من الأرض كما لو استنبت في أرض معتدلة الحرارة طيبة الهواء.

وهذا الضرب من التعليم القسري هو عين ما نراه في بلادنا وفي غيرها من البلاد الأخرى أيضا فإنه لا يكاد الولد يبلغ الحول الرابع حتى يرسل إلى المدرسة وهناك يبدأ في تعليمه أسماء حروف الهجاء ثم القراءة في كتب لا يكاد يفهم أكثر معانيها فيتعب عقله وينتهي به الأمر إلى الفجر والتذمر من القراءة والعلوم بأسرها هذا فضلا عما يصاب به الولد أيضا من ضعف الجسم وتأخر الصحة وقلة النمو.

وعليه فلا ينبغي وضع الولد في المدرسة قبل أن يبلغ السنة السابعة على الأقل، وفي أثناء هذه المدة يعلم بدون كتاب فيشرح له بطرق سهلة المأخذ الأشياء التي تقع تحت حواسه أو تخطر بباله أو تستلفت نظره سواء كانت في البيت أو في الحديقة أو في الخلاء أو في البحر أو كانت من أعضاء جسمه أو ثيابه أو من أنواع الطير والحيوان أو من المعادن والنباتات وهلَّم جرا فإن ما يتعلمه على هذا النمط يكون أحب إليه وأكثر رسوخا في ذهنه إذ يكون هو الذي سعى إليه وتنبه فكره له فيتعلمه بسرور وارتياح ولاسيما التي توصل إليه بطريقة مشوقة لا تزعج ذهنه.

وفضلاً عن ذلك فإن هذا النوع من التعليم إنما يكون بالمباشرة والملابسة والامتحان والاختبار بالنفس، وهذا ما يجعل العلم أكثر وضوحاً وأدى الثقة للولد مما لو تعلمه بالكتب فإننا لو وضعنا قليلا من الماء في طبق معرض للهواء ونور الشمس ثم بعد ساعة نبهنا الولد إليه لاستغرب من جفافه وحاول أن يفهم أين ذهب الماء فإذا بسطنا له حينئذ طريقة التبخر بفعل الشمس والهواء لأدرك الحقيقة وسلم بها حالا بعكس ما لو علمناه طريقة التبخر الطبيعي في الكتاب لأن ذاك تيقن بالخبرة الشخصية وهذا في أول الأمر تسليم بما يقوله الغير وشتان ما بينهما.

ثم إن التعليم بالكتب وما فيها من القواعد العويصة يجري على خلاف سير الطبيعة في نمو عقل الولد، فقد سبق لنا القول أن عقل الولد يكون في أول عمره ضعيفا جدا ثم ينمو ويتقوى بتدرج نشوئه وأما التعليم بالكتب فيبتدأ فيه بالكليات قبل الجزئيات التي تؤلفها ومعلوم أن من حق البسائط أن تتقدم على المركبات تقدم العمل على معلولاتها والمقدمات على نتائجها فالعلماء لم يتوصلوا إلى وضع قواعد العلوم كلها إلا بعد استقرائهم المفردات الداخلة في حكمها فأرسطوطاليس الفيلسوف العظيم لم يتوصل إلى وضع قوانين المنطق إلا بعد استقرائه طرق الناس في التعليل والبرهان والاستدلال وضرب الأقيسة واستنتاج النتائج، لأن القواعد هي نتيجة استقراء الأحوال المفردة وتلخيص لها، ولذا كان من الغلط البين أن نشرع في تعليم الولد قواعد العلوم كعلم النحو مثلا من قبل أن يعرف شيئا من الجمل المتنوعة التي يتركب منها الكلام في

اصطلاح النحاة بل من قبل أن يعرف معاني الألفاظ المفردة التي تتألف منها تلك الجمل.

وفضلا عن ذلك فإن الولد لا يفهم عبارة كتب العلوم لأنها بلغة غير لغته العامية التي لا يعرف بعد سواها ومعلوم أن الفرق عندنا بين اللغة الكتابية واللغة العامية عظيم جدا، ولذلك يجهد الولد في حفظ قواعد الكتب ومفرداتها غيبا حتى تصير ذاكرته كمعجم تقيد فيه الألفاظ أو كدفتر تجمع فيه خواطر الآخرين وما حصله غيره من الباحثين، وكان الأحرى أن يكون هو نفسه الباحث عن الخواطر والمحصل لها.

فلا بدع والحالة هذه أن نرى كثيراً من الأولاد إذا خرجوا من المدارس ينسون أكثر القواعد التي تعبوا في تحفظها والتي يذكرونها منها فإما تفيدهم لأنهم لم يتشربوها كما ينبغي ولا اختبروا صحتها بأنفسهم ولا انطبقت أحكامها عندهم على معلومات بسيطة تعلموها صغارا وسبق رسوخها في أذهانهم بحيث إذا انضافت إليها تلك القواعد امتزجت بها وارتبطت، ولذا تبقى مقلقلة متزعزعة وكل ما كان متزعزع الأساس لا بد أن يسقط على توالي الأيام.

ومن ذلك كله تتضح فائدة تعليم الولد بالتلقين الشفاهي وهو طفل قبل إرساله إلى المدرسة.